مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

حضور المكان في قصص "تيار الوعي"

الدكتور فاخر ميا*
الدكتور يوسف جابر**
هدى سليمان الحافي***

(تاريخ الإيداع 2 / 8 / 2016. قبل للنشر في 29 / 11 / 2016)

□ ملخّص □

لقد امتاز حضور المكان في "تيار الوعي" بمكانة مميزة، جعلته قادراً على عرض مشكلات الإنسان وإثارتها، على نحو دقيق وصريح، من زوايا متنوعة، لعلّ أولها: إبراز تلك العلاقة العاطفية، التي تربط الإنسان بالمكان، وأثر ذلك في تحويل علاقة الإنسان بالمكان، إلى علاقة تبادلية، جعلت الإدراك الحسي للمكان يغذي العاطفة، وبالعكس.

وضمن هذا الإطار، فقد كشفت تلك العلاقة التبادلية عن عمق الفجوة بين عالمين، لا ينتمي أحدهما إلى الأخر، وهما عالم الدّاخل، وعالم الخارج، موضحاً بذلك أزمة الذات في بحثها عن المكان الأليف، أو في رغبتها بالفرار من المكان المخيف نحو مكان آخر أكثر أمناً.

ولأنّ الوعي في مستويات ما قبل الكلام، لا حواجز له، فقد رافقت أفكار الإنسان المضطربة، وذهنه الوّقاد، بحثه الدائم عن المكان، وحلمه في تحقيق هاجس الانتماء.

الكلمات المفتاحية: تيار الوعي، مكان ، الوعي.

* أستاذ – قسم اللّغة العربيّة – كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** أستاذ – قسم اللّغة العربيّة – كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
*** طالبة دكتوراه – قسم اللّغة العربيّة – كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

The presence of place In the stories of the stream of consciousness

Dr. Fakher Maya[*]
Dr. Youssef Jaber[**]
Houda Alhafi [***]

(Received 2 / 8 / 2016. Accepted 29 / 11 / 2016)

□ ABSTRACT □

The presence of place had a distinctive position in the stream of consciousness that made it able to show and rise the humanbeing's problems precisely and frankly from many different views. Probably. The most important problem is making the emotional relationship eminent and this what relates the human being to the place and the effect of that on turning the relation of the human being with the place into a mutual one that made the perception of the place nourish the emotion and vice versa and within this concept, that mutual relationship has uncovered the depth of the gap between two worlds which neither of them belongs to the other and they are the inner world and the outer one clearing the self-crisis in its searching for domestic place or in its wish to escape from frightful place to a safer one and because the awareness has no limits in the pre-speaking levels, the confused human thoughts and intelligence have accompanied his constant searching for the place and his dream in achieving his belonging goal.

Key words: stream ofconsciousness - place – consciousness

[*]**Professor, Department of Arabic language, faculty of Arts and Humanities, Tishreen university Syria.**
[**]**Professor, Department of Arabic language, faculty of Arts and Humanities, Tishreen university Syria.**
[***]**Postgraduate student, Department of Arabic language, faculty of Arts and Humanities, Tishreen university Syria.**

مقـدمـة:

يطرح المكان في قصّة "تيار الوعي" أموراً وقضايا مختلفة، تسهم في جعله متداخلاً ومتكاملاً مع بقيّة العناصر القصصيّة، فالمكان كوجود فيزيقي محسوس، يتآلف ويتداخل مع العالم الدّاخلي للإنسان، الأمر الذي يجعله خاضعاً لحركة الداخل النفسيّ، وما يحتويه من انفعالات وأحاسيس، وفي ذلك إسهام في توسيع حركيّة القّصّ في "تيار الوعي"، والذي يُعرّف بأنّه "نوع من القصص يركّز فيه أساساً على نوع من مستويات ما قبل الكلام من الوعي، بهدف الكشف عن الكيان النفسي للشخصيات"[1]

ومن هنا لا يمكن استبعاد العنصر العاطفيّ، والذي من دونه لا يمكن للإنسان أن يشعر بالمكان، وأن يرغب أو أن ينفر منه، فالإدراك الحسي للمكان، يغذي العاطفة، ويبرزها، الأمر الذي يمنح "تيار الوعي"، الغنى الناتج عن الإحساس الذاتي بالمكان. "فالمكان إذاً، مهما بدا محايداً، يثير قدراً من المشاعر في نفس المتعامل معه، فيكتسب منذ رؤيته بعداً نفسيّاً، يختلف من مكان لأخر، ويختلف انعكاس المكان الواحد من شخص لآخر"[2].

ومن هنا تكمن الصعوبة في إدراك، تلك العلاقة المعقدة، والمتشابكة، للإنسان وأفكاره مع المكان، ومن هذه الزاوية، تغدو دراسة المكان في "تيار الوعي"، مساعدة في الكشف عن الطبيعة الإنسانيّة الدفينة، وفي تغذية الأفكار الداخليّة.

أهمية البحث وأهدافه:

يحتل تأمّل المكان في "تيار الوعي" منزلة كبيرة، فالأفكار التي تنساب متتابعة، من خلال الانطباعات، التي يخلقها المكان الممزوج مع الحال الوجدانيّة للذات، تخلق صياغة ذاتية للعالم الخارجي.الأمر الذي يسهم في تشويش أبعاد المكان المنطقيّة، وجعلها خاضعة لمنطق الداخل، فـ " العالم الخارجي لم يعد سوى ما حُلِم به"[3].

وهكذا فإنّ حضور المكان في "تيار الوعي"، يغدو فاعلاً في خلق الأفكار، وسردها وفق مستويات شديدة التنوّع، تسهم في رسم خصوصيّة الشخصيات، وفرادتها المميزة لطبيعة الذهن البشري، ومن هنا يغذي الانعكاس المعقّد للعالم الخارجي، الأفكار الداخليّة للإنسان وبالعكس، وضمن هذا التفاعل بين الذات والمكان، نستطيع التعرّف على العناصر الأكثر رسوخاً وفعاليّة في ذات الإنسان، ذلك أنّ المكان " يلد السّر قبل أن تلده الأحداث الروائية" [4]وضمن هذا الإطار تبرز أهمية البحث.

ولا يعني غياب ملامح المكان الظاهر ووصفه التقليدي، أنّه غير موجود، فالمكان في "تيار الوعي" شأنه شأن غيره من عناصر القصّ، لم يعدّ مجرد خليفة أو إطار للأحداث.

---

[1]– روبرت همفري. تيار الوعي في الرواية الحديثة. تر: محمد الربيعي، (القاهرة: دار غريب، 2000)ص 27.

[2]– صلاح صالح. قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، (القاهرة: دار شرقيات، ط 1، 1991) ص 55.

[3]– غاستون باشلار. شاعرية أحلام اليقظة. تر: جورج سعد، (بيروت: الدراسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1991) ص 172.

[4]– غالب هلسا. المكان في الرواية العربية. (دمشق: دار ابن هاني، ط1 ، 1989)، ص 11.

ومن هنا يغدو القول بأنّ المكان في "تيار الوعي"، لا يكتسب "أهمية كبيرة لذلك فهو نادر الوجود، وإنّما يقتصر الروائي في الغالب على الإشارات الخاطفة للمكان"[1] يغدو قولاً مجانباً للحقيقة، وهنا يكمن هدف البحث.

منهجية البحث:

نظراً لتداخل "تيار الوعي" مع علم النفس، فقد وجد البحث في المنهج النفسي ما يلائمه. ولكن ذلك لا يحول دون اللجوء إلى مناهج أخرى أحياناً، تفرضها طبيعة البحث.

النتائج والمناقشة:

إنّ المكان يمثل عنصراً بارزاً في "تيار الوعي"، يفرض حضوره الطاغي على الذات تعاملاً حيوياً مرناً، يضاف إلى ذلك، خصوصيّته الكامنة في قدرته على الاحتواء، الأمر الذي يجعله عالقاً في أعماق الإنسان، يحمله معه أينما حلَّ وارتحل، ويجعل أمر الانفلات منه، أو تجاوزه أمراً صعباً للغاية، إن لم يكن مستحيلاً. وبذلك يمكن دراسة هذه العلاقة الوثيقة بين الذات والمكان وفق الآتي:

1 – <u>الهروب من المكان:</u>

إن الإدراك المأساوي للمكان، غالباً ما يكون محفوفاً بالتوتر والمعاناة العاطفية، هذا الصّراع بين الذات والمكان، ليس صراعاً مادياً فحسب، وإنمّا هو صراعٌ نفسيّ، إنّ العنصر المخيف في المكان، يحفّز دافع الهرب منه، بغية اللجوء إلى مكان آخر، أكثر أمناً، يحقّق الانسجام التّام بين الذات والمكان، ومن دون هذا الانسجام، لا يمكن للذات أن تستمر بالإقامة في المكان.

في قصّة (الكريستال) لأنيسة عبوّد، يأخذ المكان أبعاده المخيفة، تحت سلسلة من الظروف، لعلّ أبرزها العنف الممارس على الذات في المكان، الأمر الذي جعله يغدو حاملاً لهذا العنف، ومذكّراً به في الآن ذاته.

" هات الطعام؛ أقول للنادل هروباً من نفسي. ملامح العجوز تبدأ بالتبدل...، إنّه يشبه أحمد الآن.... أحمد الذي كنت معه أشرب القهوة.

"أقسم.... ليس غير القهوة، هو أراد غير القهوة. وأنا كسرت المزهرية، ... آه.. لم أعد قادرة على الصّمت. أريد أن أصرخ. أن أبكي أو أن أشجّ رأس هذا العجوز.. وقفت أتأمل الرجل... أتحدّاه بنظراتي... اقتربت من النافذة. لطمت الزجاج بيدي.

لقد كسرت الكريستال.... كان مزهرية زرقاء. وكان في الزاوية فوق طاولة عليها غطاء أحمر... كانت ستائر الغرفة مغلقة والضوء يتسرّب خجلاً من ثغور متفرقة لم أسمع حركة في المنزل....

قال: أختي هنا.

" إذن لنشرب معها القهوة"

ضحك. شعرت بانكسار ما.... بتهدم ما .... إذاً.... " نحن وحدنا يا حبيبتي".

صرخت وحدنا؟......." [2]

---

1 –حميد الحميداني. بنية النص السردي. (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط2، 1993)، ص67.

2 – أنيسة عبود. غسق الأكاسيا. (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1996) ، ص 116 – 117.

إنّ ملامسة الزجاج زادت من حدّة النّشاط الذّهنيّ، الذي استدعى تفاصيل ما جرى في ذلك المكان المرعب. لقد أعادت الذات من خلال (المنولوج الداخلي المباشر) الحوار الذي جرى مع من تحب، مظهراً فجائعية الحادثة، وعمق التهشّم الروحي، الذي حمله الانفصال العنيف عن المحبوب، ومن ثمّ الهروب من المكان الذي حصل فيه الانفصال، نحو مكان آخر رغبة بالحصول على الطمأنينة، تلك الطمأنينة، التي لا تتحقق إلاّ من خلال التّطابق التّام بين العواطف والمكان المختار، ولذلك تختار الفتاة المقهى، فـ " المقهى مكان نصف مغلق، لأنّه في تكوينه شيئاً من خاصيّة البيت، أو مكان نصف مفتوح بسبب كثرة المرتادين عليه، يحمل شيئاً من خاصية الشارع، ويستقبل جميع النّاس دون استثناء"[1] . ومن هنا يشكّل مكاناً لتشتيت الانتباه، ومن ثمّ إلى نسيان الحوادث التي يمرّ بها الإنسان، ولكنّ الأمر ليس كذلك دائماً، فانشطار الذات أمام هذا التراكم الهائل للأشخاص، أيقظ في داخل الفتاة المشهد الأليم، الذي مرّت به من جديد: " على الطّرف الآخر رأيت امرأة تتأبّط ذراع رجل، إنّها تتأبّط المدينة.

"هكذا تأبّطت ذراع أحمد،

"هكذا كنت أحضن المدينة. وكان يثرثر. يثرثر.. وكنت أحبّ ثرثرته التي توحي بوجود رجل. رجل طالما بحثت عنه ليملأ فضائي.

المرأة التي تتأبط ذراع رجلها تثرثر... تحرك رأسها مبتسمة. بعد قليل ستذهب معه إلى منزله. هكذا أظنّ، بعد قليل سيقول لها أحبّك .. هي ستربّد من الخجل. وستظل مطرقة الرأس. وبعد قليل ستنكسر مزهرية الكريستال. وسيغيب الرجل. فجأة سيحضر رجل آخر لا تعرفه. ستخاف المرأة. ستصرخ. لن يسمعها أحد. وسوف يسيل الدّم ويبقّع يدها... ويصير دمامل حمراء تحت الجلد"[2]. لقد فتّق المكان تفاصيل الحادثة من جديد، وأعادها إلى الذّهن حيّة، فالتكرار هنا يزيد الأزمة تفاقماً، ويحثّ الذات على الهروب، ولكنّ ما جرى يبقى يلاحقها أينما حلّت، مشكّلاً اضطراباً في التصرفات، والتي تمثلت في محاولتها الوسواسيّة لغسل اليدين، رغبة منها بالتطّهر، يضاف إلى ذلك اختيارها لركن مظلم، وما يعكسه ذلك من رغبة في العودة إلى الرّحم، إنّه نكوص إلى المرحلة الجنينيّة، وما يرافقها من رغبة في الحصول على مشاعر الراحة والأمان، التي سيمنحها إياه هذا المكان.

هذه التشوهات النفسيّة، أدّت دوراً مركزيّاً، في اختلال الشعور بالمكان، ومن ثمّ اختلال الشعور بالنّاس، وعدم الثقة بهم، والخوف منهم، وجعل الذهن يقظاً متحفزاً. إنّ إعادة الذّهن لتفاصيل الحادثة مرّات كثيرة، يكشف عن عمق استحواذها على الذّات، والأثر البالغ الذي تتركه في الأعماق.

أمّا في قصّة "أمسية باردة أخرى" لغادة السمان، فالمكان الفارغ والظّلمة المحيطة به، تسهمان في تكثيف دلالات الخواء، والإحساس القاتم بالوحدة، وما يسبّبه ذلك من تأجيج لمشاعر الخوف والقلق.

تقع الذات فريسة أفكارها، تغدو عاجزة عن الاسترخاء والرّاحة، في البيت المخصّص لذلك، فالعجز عن التواصل مع المكان الفارغ والمظلم، يصيب الذات بالإنهاك النفسي، ويجعلها وجهاً لوجه في مواجهة مشكلتها، التي تخرج من الداخل الدفين، لتطفو على السطح مجدداً: " أمسية أخرى باردة.

أفتح باب بيتي. تفاجئني أضواء الشارع، ممزقة ومرمية على البلاط المعتم البارد..... والغرف تطل على أفواه الأبواب المفعورة مظلمة ساكنة.

---

[1] – **محبوبة محمدي محمد أبادي. جماليات المكان في قصص سعيد حورانية. (دمشق: وزارة الثقافة، ط 1، 2011)،ص 69.**

[2] – **أنيسة عبود. غسق الأكاسيا. ص 114.**

أخاف البيوت الفارغة المعتمة، نسيت أن أترك النّور مضاء قبل خروجي. لأنّني حينما أعود وأفتح الباب، أحسّ أن هناك من ينتظرني من الدّاخل....

دارنا هناك كانت تفور بالحياة والحركة، حتّى كانت تلك الليلة، وبدأ أهلها يتنافصون ويضيعون واحداً بعد آخر..."[1].

بين هذه الأماكن تبحث الفتاة عن المكان الأليف الذي يعوضها عن مكانها السابق ، وربما كانت المرأة " هي الأكثر إحساساً بتفجر الألم الإنسانيّ، الذي خلّفه تهشهم المكان، ذلك الرحم المتّسع لأحلام الجميع"[2].

فالمكان البعيد الذي تسكن فيه الآن، يشكّل قوّة غامضة تغذي عشرات الأفكار المتداخلة، التي تعبر الذهن، لتزيد من حدة الإحساس بالوحدة، وما يخلقه هذا الإحساس من الرغبة في الحديث إلى أحد ما، أو الحديث بصوت مرتفع، وفي الحوار الموجه إلى الذات، تستحضر الذات، ما تخفيه من عوالم وصور، وإيحاءات، يصبح الآخرون الغائبون، قريبين، وفي الوقت ذاته تتوسع وتيرة الانفعال، لقد استطاع المكان أن يجعل الأفكار الداخليّة أكثر غنى وشفافية: " – أمسية أخرى باردة.....

لست جائعة، ولا أعرف شيئاً اسمه وقت الطعام، وقت الطعام عندي هو لحظة جوعي، وقد ينقصني يومان قبل أن يحلّ ذلك المنبه الاجتماعي. لا أدري لما تعطّل في داخلي.

لكنّني أترك طعاماً يطهى على النّار دائماً، لا لآكله، ولكن لأشمّ رائحته، أحبّ أن تفوح في داري رائحة الطّعام دائماً، وأعرف أن ذلك يفقد الدّار شاعريتها، ولكنّه يميزها عن مكتبي. قرب رفّ الكتب الكبير أغرس شريط (السخانة) وأترك عليها طعام.

أبخرة الأكل تنتشر على الجدران. تغلّف الكتب . تتسرب إلى ثيابي الأنيقة المعلقة في الخزائن المفتوحة.

الآن ورائحة الدّار هكذا، أستطيع أن أغمض عيني في فراشي وأتخيّل، أنّ أسرة كبيرة – تخصني – تتحرك الآن خارج غرفتي ، وتتسامر حول المائدة"[3].

إن جعل رائحة الطّعام تفوح، تعكس رغبة ملحة في استعادة الفردوس السابق، إنه بيت الطفولة، ذلك "البيت المولدي – الضائع، المهدّم، المدكوك، يبقى المكان الأساس لتأملاتنا نحو الطفولة، ملاجئ الماضي تستقبل وتحمي تأملاتنا"[4] وبذلك يحفّز المكان النّشاط الذهنيّ، ويدفعه إلى رسم معالمه على نحو مميّز، كاشفاً عن الجوانب التي تتعالق مع الذات تعالقاً قويّاً، الأمر الذي يفضي إلى علاقة خاصّة مع المكان، تقصي الواقع الراهن، وتغوص بعيداً في الأعماق الأبعد، لذلك يصبح من الصعوبة التكهن بما سينتهي إليه (المنولوج الداخلي المباشر) في رسمه لمعالم المكان، متى يتأجج حضور المكان في الذهن، ومتى يخبو، إن علاقته المتشابكة مع الذات، تمنحه تلك البصمة الخاصّة، التي تجعل الأمكنة الأخرى المغايرة جميعها مخيفة، ويحوّل حضورها المفروض على الذات، إلى حضور جحيمي فاجع.

---

[1]– غادة السمان. ليل الغرباء. (بيروت: دار الآداب، ط3، 1975) ، ص 135.

[2]– طاهر عبد المسلم. عبقرية الصورة والمكان . (عمّان: دار الشروق، ط1، 2002)، ص 188.

[3]– غادة السمّان. ليل الغرباء. ص 140 – 141 .

[4]– غاستون باشلار. شاعرية أحلام اليقظة. ص 199.

إن الاشمئزاز من المكان الحالي، والإحساس العارم بقبحه وخرابه، يشي بعمق الاغتراب والقهر، ويجعل الذات أكثر حساسيّة لتلقّي ما لا نهاية له من الانطباعات، التي تسهم جميعها في خلق شخصية ضائعة مقهورة، عاجزة عن إدراك الاستقرار العاطفي والنفسي، عاجزة عن التواصل مع أي مكان، ومن ثمّ مع أي إنسان يعيش فوقه.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، فالمكان يوقظ الذاكرة، إن رؤية الإنسان لصورة ما تشحذ ذاكرته، وتفتحها على آفاق عريضة تبحر فيها، إلى الدّرجة التي قد لا يستطيع المرء معها السيطرة على أفكاره، ومن هنا تبرز استحالة حصر المكان وموجوداته بما تقع عليه عين الإنسان فقط، قد يبدو هذا غريباً للوهلة الأولى، إلّا أن هذه الغرابة تصبح واضحة، حين تفهم تلك العلاقة المتبادلة بين الذاكرة والمكان.

2 – <u>المكان المستدعي من الذاكرة:</u>

تصبح الذاكرة عيناً مخفيّة، تطالع وتشاهد تفاصيل المكان، وتسهب في وصف موجوداته، إن إدراك المكان الواقعي، يترافق مع مكان آخر، مرسوم في ظلمات الداخل، يتحين الفرصة للظهور والعوم من جديد. كما في قصّة (مواء) لأنيسة عبوّد: فالاستغراق في عالم الذّات يسهم في تغيّب المكان الواقعيّ، ليطفو على السطح المكان المستدعي من الذّاكرة، فمن خلال المقارنة بين المكانين تتداعى الأفكار: "إن النّهر هو الذي ربت على كتفي. ابتسم وألقى ماءه العذب أمامي. هناك صفصافة خجولة. وهناك على الضفّة المقابلة أمي تغسل ثياب أخوتي. ومن بعيد ظهر أبي يجرّ بقرتنا الوحيدة كي يسقيها. خجلت من عيني أمي. كنت أرتدي ثياب البحر..

ابتسم نهرنا. حملق نهر الدانوب باستغراب... كنت غريبة فبكيت...."[1]

تقف الفتاة على ضفة النهر، لكنّ روحها تسافر بعيداً إلى مكان آخر، تلتقط العين الصّور المشاهدة، لتحيل الذهن إلى صور أخرى غائبة، ناقلة أفكارها من مكان إلى آخر، مما يسهم في عزلها عن المكان الرّاهن.

إنّ رغبتها في التحرر من آثار القمع الممارس عليها في السنين الماضية، يبقى غير متحقق على المستوى الأعمق، وهي في ذلك، لا تنجح في نفي الماضي، وعلى الرّغم من أنها تحاول كثيراً إخفاءه، بغية التمكن من الاندماج في المكان الجديد، لكنّها لا تستطيع إذ سرعان ما يحضر الماضي قافزاً إلى الذّهن، لمجرد أن ترى النهّر، الأمر الذي يرفع من وتيرة الأفكار الداخليّة، الّتي توضّح صراعاً بين نسقين متباينين من الحياة. تحمل عبارات التأنيب الداخلي والخجل، ضغطاً نفسياً، يمارس فعله الكامن، وفق سلسلة لا متناهية من التداعيات المترابطة، والتي تبدو غريبة، ومتعاكسة، مع خواص التفكير المنطقية، فكيف تحضر القرية، بنهرها وناسها البسطاء جنباً إلى جنب مع نهر (بواديست)؟ إن هذا الجمع بين المكانين، لا يمكن أن يتمّإلّا في المستوى الذهني، وهو يعكس تجذّراً للمكان الماضي بعاداته وتقاليده، ولأنّه يبقى ضمن النسق الذي يمارس تأثيره الفاعل على تصرفات الفتاة العلنيّة والكامنة فهي عاجزة عن التحرر منه، مهما حاولت.

وكذلك تقدّم قصّة (انفجار الألوان) لأنيسة عبوّد، عالماً مكانياً متكاملاً، يستدعي مرحلة سابقة بتفاصيلها، التي تعرض من خلال الأشياء الموزعة عبر اللوحة؛ " لماذا أخذ السّطح يتقطر فوق رأسي؟ اللوحة لم تكتمل بعد... باب الزريبة يحتاج إلى بعض العوارض... خراف تركض أمام الكلب البني... أمي تقول: لا تركضي. لن يعضّنا. إنّه يعرفنا ويأكل من زادنا... لكنّني خائفة. وأنا أحمل البخور إلى المزار وأمي تعصب رأسها... الدخان يتصاعد عالياً، راسماً طرقات كثيرة، سيدي الشيخ بشير يقرأ الفاتحة ويتناول البخور. رائحة البخور تعبق بالمكان. أكاد أختنق...."[2]

---

[1] – أنيسة عبود. غسق الأكاسيا. (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1996) ص 140.

[2] – أنيسةعبود. غسق الأكاسيا. ص 161.

إن التداعي الذي تحفزّه الأمكنة المرسومة، يكشف على نحو أكثر شفافيّة الأشياء المطمورة، التي تخفى عن الإدراك المباشرة، وتشكّل ترجمة للمخاوف التي تهدّد الذات، والتي تزداد بشكل يجعل من العسير على الشخصية مواجهتها، فالحواجز التي تمعن الذات في الاختباء خلفها تنهار، لتطفو المشاهد المؤلمة، قاطعة الصّلة مع العالم الخارجيّ، ومقيمة علاقات جديدة مع المكان المرسوم، وممّا يسترعي الانتباه أنَّ مضمون تيار الوعي، يأتي في قسم كبير من اللوحة، وفي قسمه الآخر من الحاضر الرّاهن، ومن هنا يمكن التساؤل، إلى أيّ حدّ يمكن لسيرورات المكان هذه أن تمارس تأثيرها المباشر على الوعي؟ إنّ التمعن في تفاصيل المكان المرسوم يؤكّد على أنّه يشكّل النّواة، الّتي تدور حولها الأفكار، وقد خرجت من منطقة ما قبل الكلام، إلى حيّز التمثيل العياني، الذي تجسده الرسوم والألوان. فالكلب الذي يهجم عليها بوحشية، ويرسم على وجهها ملامح الخوف المستمر، على الرغم من مرور السنين، ورائحة البخور، والأمّ التي تعصب رأسها، إنّما يعكس استغراق الذات في داخلها المؤلم، وعدم اكتراثها بالخارج، إلاّ بالقدر الذي يزيد من حدة هذا الاستغراق، وخلافاً لما تتوقعه، فإن الماضي لا يزال يعمل وبقوة في الخفاء، يمثل حضور المكان اختزالاً للإحساسات الماضي الغامضة وترجمة لها، بعد أن ظلّت طوال تلك السنين كامنة وغير ظاهرة، يندمج المنولوج الداخلي المباشرة، مع المكان، ولا ينفصل عنه، مما يفضي إلى شخصية قلقة مضطربة، يحكمها الخوف ويسيطر عليها، راسماً أبعاد ذات تعيش ألم الماضي. وتفشل في التلاؤم مع الزمان والمكان الحاليين.

3 – <u>المكان الضائع:</u>

يشكّل ضياع المكان أزمة وجوديّة تواجه الفرد، وتسبب له الشعور بالاضطراب وفقدان الانتماء، وما يرافق ذلك من إحساس عارم بالخوف والاغتراب، ومن ثمّ العزلة ولاسيما في المدن المكتظّة. "حيث شبكات معقدة من المباني الضخمة، والمنازل والشوارع، والفنادق والمطاعم، وأماكن البيع والشراء، حيث الاقتراب متواصل ومستمر، كرها أو طوعاً، وقد كان ما نجم عن ذلك كلّه. وفي أغلب الأحوال. عزلة ووحشة قاتلة تشككاً واستغراقاً في الذات" [1]. يمكن أن نجد المعاني السابقة في قصّة "الجهات الضّائعة" لأنيسة عبود. حيث يغدو المكان عنصراً مكوّناً للحدث القصصيّ، فالذات التي تواجه العالم المتغيّر الغامض، تلجأ إلى داخلها، ملقية عليه الأسئلة، وما يعنيه ذلك من أنها لا تحتاج إلى إجابة، ولا تنتظرها أيضاً، وإنّما فقط تطلقها بهذه الكثافة، للتعبير عن حدّة الدّهشة، وعمق الاغتراب، إنّها وسيلة تساعد الذات على استيعاب المتغيرات والتخفيف من حدّة الضياع: " قد نبيع بعضنا ونشتري، ألسنا سلعاً رابحة؟ ويتهافت غول كبير لشرائنا؟ ما هذه الأسئلة المجحفة التي تراودني؟ ما علاقتي أنا؟ يبدو أنّي أطلت الوقوف والاندهاش، ممنوع الاندهاش في هذا الزمن"[2].

إنّ الاندهاش وما يرافقه من إحباط، يغذّي تدفق الأفكار الداخليّة، التي تمعن في رسم الحدود بين الحاضر والماضي، بين المدينة المرسومة في الذهن، والشيء الواقعي الموجود الأن تحت وقع البصر، وما يحمله ذلك من تضاد موجع وتناقض يشتّت الرّوح ويسحق الأحلام. لقد كانت علاقته مع المدينة فيما مضى علاقة وثيقة، لأنّ كليهما كان أقرب إلى البساطة، كان ذلك قبل أن تتحول المدينة، إلى هذه الغابة غير المتجانسة من الدكاكين والشوارع، والبيوت المزدحمة، والمغلقة، والمسوّرة إلى حدّ الاختناق: " أجل كأنّي لأوّل مرّة أرى هذه الجدران، وهذه الوجوه، مدينة لا تطلّ من نوافذها النّساء المخضبات بالحنّة. وقفت أتأمّل المنازل التي تحولت طوابقها السفلى إلى "سوبر ماركت" مخازن لبيع

---

[1] – شاكر عبد الحميد. الغرابة المفهوم وتجلياته في الأدب. (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد 284، يناير 2012) ص 144.

[2] – أنيسة عبود. غسق الأكاسيا. ص 102.

كل شيء، بهذه السرعة، تحوّلت غرف النّوم إلى دكاكين، يبدو أنّ المدينة ستتحوّل إلى دكّان كبير، وسينزح أهلها عنها ليسكنوا البراري ويحولوا بيوتهم إلى بازار واسع يبعون فيه بشراً يشبهونهم" [1]. يحدّث البطل نفسه بصوت مرتفع، ولكنّ ذلك لا يلغي المنولوج الداخلي، فهو وحيد، وسط جغرافية جديدة، وما يحمله هذا من إحساس بالتلاشي والضياع، فالمكان الذي كان بالأمس قد تغيّر، وتغيّره يحمل ضمنياً تغيّر النّاس، الذين كانوا يعيشون فيه، ومن هنا سيجد الإنسان نفسه وحيداً، وما يرافق ذلك من إحساس بالخطر العارم. إنّ ما يرافق الدهشة من شلل القدرة على التعبيّر، كان أحد العوامل المغذّية لسيل الأفكار الداخليّة، التي تحوّل ضجيجها إلى فزع وتوجس، فإذا كانت غرف النّوم تتحوّل بهذه السرعة إلى دكاكين، فكيف هو حال البشر؟! .

إنّ عبارة " يجب أن يكون للمرء موقف" التي تسيطر على وعي البطل، إنّما هي محاولة للتشبّث بالمكان، الذي يتعرض لفيضان ساحق، وعلى الإنسان التشبث جيداً، حتّى لا يجرفه الطوفان، إنّها محاولة للصمود في مواجهة انعدام الألفة، وضياع الفرد، وفقدانه اليقين، بعد أن ضاعت ذاكرته بضياع المكان الحميم، ذلك أنّ للمكان ذاكرة.

وبتعبير آخر، إنّ عدم قدرة الشخصية على تحديد اسم الشارع، أو معرفة أين هو البحر شرقاً أم غرباً، إنّما يعكس حيرة وشك في الأمور كلّها، ولا يقتصر الأمر على المدينة وشوارعها فقط، وإنّما يمتد إلى ذات الشّخص، الذي يقف عاجزاً لا يعرف تماماً ما اسمه الحقيقي؟ عمران الوردي، أم حمدان البريّ، ضياع المكان يعادل ضياع الهوية وفقدانها، "وهكذا أصبحت الأماكن الحديثة، أماكن الغياب، إنّها تلك الأماكن بلا هوية، الأماكن التي ليست أمكنة، الأماكن التي ليست مكانه، الأماكن التي تقاوم الإغلاق، الأماكن المفتوحة دائماً على المجهول، الأماكن المتاهات، الأماكن التي يكون الإنسان فيها رقماً بين ملايين، ويكون فيها حيّاً، ولكنه يكون ميتاً، على نحو ما "[2].

تتقلّص لديه الشجاعة والقدرة على المواجهة والفعل، لأنّه ومن دون مؤازرة المكان الأليف يقع تحت هيمنة أفكاره وهواجسه، الأمر الذي يفاقم إحساسه بالعجز والوحدة، والخوف من أيّة معارضة للآخرين الغرباء عنه، لأنّها ستسبّب انفصاله عن المكان، وما يحمله هذا الانفصال من القلق، تسعى الذات إلى تحاشي ذلك من خلال تبنيها حلاً وسطاً:"هكذا كان يحدّث نفسه: " يا إلهي ماذا لو غيرنا أسماء المدن، أو أسماء الأشياء، مثلاً نسمّي البحر جبلاً. – ماذا– يفرق – معي؟ ماذا لو أعطوني اسماً آخر. أنا ما زلت أخبئ رائحة منديل أمي في ذاكرتي، ومازلت أبكي حين يبكي حمدان البريّ"[3].

إنّ تنازله عن قناعاته، وحتّى عن اسمه الشخصيّ، يشكّل غموضاً لا يكتمل فهمه، إلا بفهم، وإدراك طبيعة الوعي، الذي كشف عن مآزق الذات، ليتيح بذلك فهماً أوسع للأنا، ولسلطة المكان، الذي تحكّم بقرارتها.

المكان المأزوم:

يشكّل المكان المأزوم قوّة غامضة، تثير في النفس أفكاراً مخيفة، ولا سيما إذا كان المكان مرتبطاً بذكريات مؤلمة، كما في قصّة "المدللون" [4] لغادة السمّان، فإذا كانت التّفاصيل الصغيرة – في هذه القصّة – تحيل بجوهرها إلى المكان، فإنّ التأمّل في موجوداته، جعل الماضي يحضر إلى الذهن، بانسيابيّة تكتسب دلالتها لا من حيث كونه ماضٍ قد انقضى، وإنّما من خلال شدة انغلاق الذات عليه، بطريقة تجعل من الصّعب إعادة الاندماج مع الآخرين من جديد.

---

[1]– أنيسة عبود. غسق الأكاسيا. ص 102.

[2]– شاكر عبد الحميد. الغرابة المفهوم وتجلياته في الأدب. ص 144.

[3]– أنيسة عبود. غسق الأكاسيا. ص 106.

[4]– غادة السمّان. عيناك قدري. (بيروت: دار الأدب، ط3، 1975)، ص 109.

فالأمكنة جميعها التي تمرّ بها الفتاة، تعيد إلى ذهنها موقفاً، أو ذكرى تربطها بأمّها، وترجعها إلى عذاباتها، ومصيرها المخيف، ومن هنا تؤسس غرفة المرايا المصمّمة بأسلوب غريب لفعاليّة المكان المأزوم، وشدة حضوره الطاغي على الذّهن، ولا سيما أنّه مكان إشكالي، مثير للفضول، يغذي الأفكار الداخليّة، التي تراود ذهن الفتاة، باستمرار " تتساءل كما تساءل الفلاحون طويلاً:

لماذا جاءت أمي بهذه المرايا كلّها من المدينة بعدما هجرتها لتتزوج أبي؟ ما معنى مئات العيون التي تطل من كلّ ركن وزاوية، تتأملني والخوف يأكل منها؟ ماذا كانت تعني بالنسبة إلى أمي؟ لماذا كانت ترقص أمامها وتنشد، فتلألأ الثريات وتتقاذف المرايا أضواء فتتضاعف آلاف المرات وتسقط على خيالات لمئات العيون التي تحدّق بإعجاب... سراب... لم يكن في الغرفة سوى أميّ وعينيّ أمي وإعجاب أمي![1].

تغدو الغرفة مكمّلاً للفرد المعزول المنزوي في ركنه، يصبح لحضورها الفعّال المهيب اتصالاً بقوى الإنسان الوحيد، ذلك " الكائن الذي يظلّ ساكناً في قوقعته يتأهب للانفجار، إن لم نقل لعاصفة"[(2)].

يشكّل رفض الأمّ للمكان المعزول عن البشر، والمخيب للآمال، مصدر تعاستها، وإحباطها وعذابها النفسيّ، ومن ثمّ سلوكها الغريب، الذي يلّح على ذاكرة الفتاة، بعد ما ظلّ كامناً في أعماقها طوال هذه السنيين.

تكشف تداعيات البنت هي الأخرى، عن رفض غامض للحياة، وللمكان، وللنّاس الموجودين فيه، وما يحمله ذلك من حسّ فوقي سلطوي، لم يأتِ من فراغ، وإنّما مهّد له سلوك الأمّ السابق، ووصاياها:

"تذكر أنّها كانت تغني لها في شبه قسم وثنيّ محموم، تفوح منه رائحة دماء حارة، وتقول: ستكونين يا صغيرتي... ملكة هذا الوادي.. هديتي لشبابك سوط علقته على جدار غرفتك، سيكون لك ... عندما تكبرين وتناله يدك...

ما الذي يظلّ يشدها إلى التفكير بأمها؟ ما الذي يشدّها إلى مراياها وحكايا ذعرها"[(3)].

إنّ إلحاح مواقف الأمّ الماضية، وردود أفعالها على ذهن الفتاة، يسهم في ترابط الأفكار السابقة، في عملية تدفق حيويّة مما يشي بخطورة سيطرتها على الذهن، واستبدادها به.

" بعد هذا اليوم بمدّة قصيرة اختفت أمّها.. سمعت خادمتين تتهامسان في المطبخ بأنّها جُنّت وتقرّر نقلها إلى مكان بعيد، وماتت قبل أن تجتاز السيارة الوادي!.

عجيبة هي تلك القاعة، كأنّها خزّان الماضي، الذي ينفجر على غير ميعاد. يجب أن تبعد هذه الخيالات عن رأسها كي تكون قادرة على تنفيذ ما اعتزمته منذ أسابيع الليلة فقط، وينتهي كلّ شيء.... إلّا... إلّا إذا جاء لؤي"[(4)].

هناك تراسل بين أفكار الفتاة، والأفكار والذكريات التي يحتويها هذا المكان المأزوم، هذا التداخل يبدو مؤسساً في إطار من الدوافع والانفعالات، والرغبات المتشابهة، بين الأمّ وابنتها، يسهم في رسم مصير مشترك موحّد.

"قد تلقاها بعد ساعات... ستحمل معها رماد هذه الأرض. أكواب السنابل. السوط.. المرايا.. مئات الأعين التي تطلّ منها، هشيم الأطفال.. ستفجر الحركة في موات الخشب والأشياء الجامدة عندما تحرقها... ترقبها تطقطق في

---

[1]– **غادة السمّان. المصدر السابق، ص 111.**

[2]– **غاستول باشلار. جماليات المكان. تر: غالب هلسا، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 2، 1984)، ص 116.**

[3]– **غادة السمان. عيناك قدري. ص 114.**

[4]– **المصدر السابق، ص 112.**

اللّهب... تتلّوى وتئن كأنّما دبت الحياة فيها.. تفوح رائحة الأهداب والمقل المشوية عند أطلال القصر السود. ترفع نظراتها عن الفلّاح الذي مازال يعمل دون أن ينتبه لوقفتها... تنظر إلى القصر. ترتعد.."[1]

يوضّح المنولوج غير المباشر، انجذاب الأنا في حال من القلق المحموم، نحو المصير المظلم الذي يحمله المكان، ويوضّح تلك العلاقة الغامضة، التي يتبادل معها التأثيرات المعقدة، مما يسهم في استرسال الأفكار، والاستغراق فيها، ومن ثمّ رسم ملامح مرحلة كارثية مقبلة.

إنّ قدرة المكان على توليد الذكريات، وإعادتها نابضة حيّة إلى الذهن، منحه فعاليّة مضاعفة، وأسهم ليس بإخراج الذكريات وألمها فقط، وإنّما في إخراج إحساس عدواني دفين، لم يتيح له أن يلحق الأذى بالآخرين، فتوجه إلى إلحاق الأذى بالذات، " فالشخص في ثورة الغضب يبين كيف يتم الانتقال من العدوان المقيد إلى تدمير الذات، وذلك بتحويل عدوانه على ذاته، فهو يجذب شعره أو يلطم وجهه بقبضتيه، وهذه معاملة كان يوّد لو وجهها إلى شخص غيره"[2].

ولكن ما فعلته الفتاة بنفسها كان أعنف من ذلك بكثير، لقد اختارت لنفسها قدر الانتحار، فماتت في ميعة الصّبا، كما ماتت أمّها من قبل.

وبذلك يكن القول: إنّ تأثير المكان في النشاط الذهني، قد كشف عن مستويات نفسيّة مختلفة، بدأت بصورة مبسطة ولكنّها انتهت بصورة مأساوية.

خاتمة:

بالاستناد إلى المناقشة السابقة، يكن القول: إنّ ملاحظة محتوى المكان في "يتار الوعي"، قد أظهر ليس فقط الفوارق بين تصوير المكان في القصّ التقليديّ، والقصّ الحديث، وإنّما أظهر كيف يعكس العالم الفكريّ العالم الواقعيّ، ويرتبط به من جهة، ومن جهة أخرى: فإذا كان المكان خليطاً من الذاتيّ والواقعيّ، فإن هذه الذاتيّة الّتي تحرّك الوجدان، وتتوغل في أعماق النّفس، قد رافقت المرء في رحلة بحثه عن نفسه، وأظهرت تعقيدات هذه النّفس وغموضها.

[1] – غادة السمّان. عيناك قدري. ص 115.

[2] – سيجموند فرويد. الموجز في التحليل النفسي. تر: سامي محمود علي، (مصر: دار المعارف، ط 2، د.ت)، ص 20.

الاستنتاجات والتوصيات:

1 لقد برهنت أفكار الإنسان، أنّها تعكس ليس فقط المظهر الخارجي للمكان، وإنّما الخصائص المتأصّلة للأشياء وعلاقته المتنوعة معه.

2 إن المكان الذهني لا يتطابق حضوره دائماً مع المكان الواقعيّ وبذلك ينقسم المكان – إن جاز التعبير – إلى مظهر خارجيّ مدرك بالحواس، ومظهر داخليّ مدرك بالذّهن.

3 للمكان قدرة كبيرة على توليد الذكريات، وإعادتها نضرة من جديد.

4 للمكان دوره في بث الرّاحة النفسية للإنسان، أو سلبها منه وفي كلتا الحالتين يبرز دوره الفاعل في تغذية الأفكار الذهنيّة.

مصادر البحث:

1 السمان، غادة. ليل الغرباء. بيروت: دار الآداب، ط3، 1975.

2 عبود، أنيسة. غسق الأكاسيا. دمشق:اتحاد الكتاب العرب، 1996.

المراجـع:

1 أبادي، محبوبة محمدي محمد. *جماليات المكان في قصص سعيد حورانية* . دمشق: وزارة الثقافة، ط 1، 2011.

2 باشلار، غاستون. *جماليات المكان*. تر: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 2 ، 1984.

3 باشلار، غاستون. *شاعرية أحلام اليقظة* . تر: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1993.

4 الحميداني، حميد. *بنية النصّ السردي*. بيروت: المركز الثقافي العربي، ط2، 1993.

5 صالح، صلاح. *قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر*. القاهرة: دار شرقيات، ط1، 1997.

6 عبد الحميد، شاكر. *الغرابة المفهوم وتجلياته في الأدب* . الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، عدد 284، يناير 2012).

7 فرويد، سيجموند. *الموجز في التحليل النفسي*. تر: سامي محمود علي، مصر: دار المعارف، ط2، د.ت.

8 عبد المسلم، طاهر. *عبقرية الصورة والمكان*. عمّان: دار الشروق، ط1، 2002.

9 هلسا، غالب. *المكان في الرواية العربية*. دمشق: ابن هاني، ط1، 1989.

10 همفري، روبرت. *تيار الوعي في الرواية الحديثة*. تر: محمد الربيعي، القاهرة: دار غريب، 2002.